المادية الديالكتيكية ونظرتها الى التاريخ

بقلم ايليا صريق

« على الذي يخشى ان يأخذ به الدوار ان يبحث عن ناموس حركة الارجوحة » ارثر كستلر ـ « ظلام عند الظهيرة »

حتى هذه السنة، يكون قد مر على صدور البيان الشيوعي مئة واحدى عشرة سنة، فأين نقف نحن العرب اليوم من الاثر الفكري الذي احدثه هذا البيان ؟ ان نظرية تفسير الوجود والحياة والاجتماع المادية الديالكتيكية اليوم ليست بفلسفة جديدة ، ولا نظرية تقبل النمو والتطور ، بل هي عقيدة يدين بها جماعة منضوون في مؤسسة سياسية كبرى ، او جماعة يدينون لهذه المؤسسة بالولاء ، وهم اشبه شيء بجنود في مخيم . لقد عمّرت الديلكتيكية المادية كمذهب نظري حافظ على اصالته فوق طاقتها على الحياة .

وفي هذا المقال ، سنحاول اظهار هذه الحقيقة عن الماركسية مع ابراز نقاط الضعف في هذه النظرية . وليست الغاية من هذا البحث مجرد متعة فكرية او رغبة في النقد ، وانما هي محاولة لوضع النظرة المادية التاريخية موضعها في النظر الفلسفي امام القارىء العربي ، اولا لان التعاليم الماركسية ناشطة بين صفوف الشباب العربي بالرغم من انها قد شاخت في الاوساط الفكرية من البلدان المتقدمة . ثانيا ، ان الفلسفة المادية الديلكتيكية في نظرتها التاريخية قد شددت على اهمية وسائل الانتاج والعامل الاقتصادي في تسيير عجلة التاريخ وبالتالي اضافت الى فلسفتها النظرية عنصرا واقعيا عمليا يقرب الى الحقيقة لدرجة قد تجعل الناس تعتقد بصحة نظرتها اجمالا وتأخذ بمبدأ المادية التاريخية دون ان تلحظ المرامي الخطرة من المظاهر الحسنة الجديرة بالاعتبار . ان فهم التاريخ فهما فلسفيا شاملا وعميقا وخلاقا من اهم ما يحتاج اليه العرب اليوم للخروج من محنة الفوضى المستحكمة في الحياة العربية . ان نظرتنا نحن العرب اليوم الى التاريخ نظرة ضيقة وسطحية لا تتعدى نطاق تاريخنا القومي ، ومع هذا نرى انها ترتكز على العاطفة وتبني على الشبه والقياس متجاهلة حقيقة التاريخ ومجراه . اما النظرة المادية التاريخية فترتكز على اسس فلسفية متفيزيكية مهما تنكر اصحابها لهذه الكلمة ونفوا ان يكون لهم اي علاقة او نظرة متفيزيكية الى الامور .

وسنرى أثناء البحث ان الفارق المميز بينهم وبين المتفيزيكيين الآخرين انهم نفوا نظرة متفيزيكية معينة وتعلقوا بنظرة متفيزيكية اخرى .

وبالرغم من الجموح النظري الذي يميز النظرة الماركسية في مبادئها الفلسفية الاساسية ، فقد استطاعت مع هذا ان تنظر الى حركة التاريخ بعين نافذة ثاقبة واقعية ، وتمكنت بذلك ان تصبح دينا شعبيا . ان الانتصارات التي حققها السوفيات منذ اوائل هذا القرن الى يومنا هذا يعود الفضل فيها الى تنبه لشيوعيين للعوامل والقوى الدافعة لعجلة التاريخ وحسن تفسيرها عند التطبيق . والاتحاد السوفياتي هو اليوم الجبهة السياسية الوحيدة التي تتبع في سياستها نظرة تاريخية شاملة تستلهمها وتأخذ بنتائجها .

لقد ظهر ماركس في القرن التاسع عشر في فترة ساد فيها العلم ونتائجه العملية في اوروبا . ولكن من بوادر هذا العصر الغريبة انه بالرغم من انتصارات العلم في الحقل العملي طغت على العلم في القرن التاسع عشر نزعة فلسفية هدفها تخطي المعطيات العلمية الجزئية والانتقال منها الى نظرة شاملة في الكون والخلق والحقيقة اجمع . وكان من الاسس التي اعتمدوا عليها الرياضيات والروح الرياضية في النظر الفلسفي ، فدفعتهم هذه الروح الى اعتبار العالم الطبيعي والاجتماعي والاخلاقي كما يعتبرون مبادىء الرياضيات بدقة ويقين محاولين اخضاع الوجود الى بضعة نواميس مطلقة تفسر الكون بأجمعه . ومن هنا انطلق ماركس الفلسفي فتضمنت فلسفته النتائج العلمية التي توصل اليها عصره ثم ربط بين هذه النتائج الجزئية بنظرية عامة كلية .

بحث الشهر الفلسفي

الحقيقة ان ماركس والماركسيين فسروا الكون والوجود والمجتمع بمبادىء فلسفية ثلاثة متبعين بذلك طريق الرياضيين من ابناء عصرهم وهذه المبادىء المتفيزيكية الثلاثة هي : اولا ، ان كل ما يحصل من تغير في الوجود انما هو انتقال من الحكم الى النوع بصورة مفاجئة وسريعة، وتدعى هذه العملية من التحول

« نقلة نوعية » والمقصود هنا ان كل اعتبار نوعي كالانفعال النفسي والتفكير والشم واللون الخ.. ليس سوى مادة في مظهر مخالف . المبدأ الثاني ، هو ان هناك تناقضا ضمنيا قائما في جميع الموجودات ومظاهر الطبيعة . وبالتالي ترى المادية الديلكتيكية ان عملية التحول من الكم الى النوع تأخذ طابع الصراع بين المتضادين ، ليس بالتدرج البطيء بل بالتحول المفاجيء السريع . ثالثا ، مبدأ تناقض التناقض ويأتي في نهاية السلسلة .

ان هذه المبادىء الثلاثة هي العصا السحرية التي تفسر الكون والحياة والمجتمع بأسره في نشوئه وتطوره وجميع علاقاته المعقدة . وفي ذلك يقول ستالين : هكذا نرى ان علم تاريخ المجتمع مهما بلغ من التعقيد يظل علما له من الدقة ما لعلم البيولوجيا او غيره . ان الوجود بالنسبة للماركسية وحدة تامة متكاملة لا ينفرد فيه كائن دون ان يخضع للمبادىء الثلاثة المذكورة وما المجتمع الا مظهر من هذا الوجود العام ويمكننا اظهار هذه المبادىء في المجتمع . واذا ترجمنا هذه القواعد الى اللغة الاجتماعية نرى اولا ان الافكار والمشاعر الانسانية في المجتمع ليست سوى مظهر من مظاهر العوامل المادية في المجتمع ، وان القيمة الاساسية ليست لهذه المشاعر بل لاسسها المادية وبالتالي تكون العوامل الاقتصادية والجماعية التي يقوم عليها المجتمع اهم من الافراد في المجتمع واهم من امانيهم وافكارهم ومشاعرهم . ثم نجد ان تطور المجتمع لا يحصل الا بالثورة وانه لا يوجد هناك اصلاح سلمي تدرجي هادىء .

والمشكلة الرئيسية التي سنعنى بها هنا هي تفسير هذه المبادىء الثلاثة في المجتمع وفي تطوره . وبهذا الصدد يظهر السؤال التالي : ما هي القوى الرئيسية التي تقرر الحالة او الصورة التي يأخذها المجتمع ونظامه في تطوره من حالة الى اخرى ؟ ما الذي يقيم الدول والامبراطوريات ويعيدها الى دمار ؟ ما هي العوامل التي تستبد بحياة المجتمع ؟ ان جواب الماركسية على هذه الاسئلة ان العامل الرئيسي في حياة المجتمع هو « طريقة تحصيل امكانيات العيش الضرورية للوجود الانساني وكيفية انتاج القيم المادية كالمأكل والمشرب والملبس والسكن والمحروقات وادوات الانتاج الخ ... التي لا غنى عنها لحياة المجتمع ونموه » . ان قوى الانتاج تشكل ناحية واحدة من عملية الانتاج العامة ، وهي عبارة عن علاقة الانسان بموجودات الطبيعة التي تنشأ فيها القيم المادية. اما المظهر الثاني من الانتاج فهو الذي يتمثل بعلاقة الانسان بأخيه الانسان اثناء عملية الانتاج . يقول ماركس بهذا الصدد : « ان الانسان لا يؤثر في عملية الانتاج على الطبيعة فحسب بل ايضا على اخيه الانسان » . واهم مظاهر الانتاج انه في تغير دائم وان هذا التغير في ظروف الانتاج يؤدي لا محالة الى تغيرات جذرية في النظام الاجتماعي والافكار الاجتماعية والافكار والمؤسسات السياسية . يعني هذا القول ان تاريخ تطور المجتمع هو في الدرجة الاولى تاريخ تطور الانتاج في المجتمع وبالتالي تصبح مهمة علم التاريخ ان يتحرى نواميس الانتاج ونواميس تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . تقول الماركسية ان علاقات الانتاج وهي عبارة عن رابطة الانسان بالانسان في عملية الانتاج وملكيته لوسائل الانتاج ، يجب ان تطابق حالة قوى الانتاج اي الآلة في جميع الظروف . يعني هذا القول ان النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية انما تأخذ طابعها في كل فترة نتيجة الآلة السائدة ، ولذلك يرى الماركسيون ان التاريخ الانساني مر في خمس مراحل تاريخية وهي : الدور الشيوعي البدائي ، دور العبيد ، دور الاقطاع ، الدور الراسمالي ، والدور الاشتراكي .

تكون وسائل الانتاج في المجتمع الشيوعي البدائي ملكا للجميع لا ملكا لفئة خاصة ، وهذا النظام من الملكية الشائعة ناتج عن طبيعة قوى الانتاج في هذه الحقبة ، وقوى الانتاج في هذا الدور التاريخي هي الادوات الحجرية والقوس والنشاب .

وفي دور العبيد تحصر الملكية بالسيد الذي يستأثر بوسائل الانتاج بمفرده بما فيها العبد نفسه ، كما ان له الحق بقتل العبد او بيعه . يطابق هذا النظام قوى الانتاج التي تحولت من الادوات الحجرية الى المعدنية ، وهذا التحول هو الذي حتم نوعية النظام الاجتماعي المذكور .

وفي الدور الاقطاعي يملك السيد الاقطاعي وسائل الانتاج ولكنه لا يملك المنتج أي العامل ويسمى الخادم ، فهو اذ يستطيع ان يبيع الخادم ويشتريه لا يمكنه قتله. وهذا النظام او التطور من نظام العبيد الى الاقطاع ناتج من التحسن في الادوات الحديدية .

وفي الدور الراسمالي يملك صاحب رأس المال وسائل الانتاج فقط . اما العامل فيبقى حرا ، ولكن هذه الحرية نظرية غير فعالة ، اذ ان العامل الذي لا يملك

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الست الاولى من الآداب تباع كما يلي

مجلدة

مجموعة السنة الاولى		٩٥ل.ل	١٠٠ل.ل
« « الثانية		٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة		٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة		٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة		٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة		٢٥ «	٣٠ «

وسائل انتاجية يضطر ان يبيع طاقته في العمل لصاحب راس المال والا مات جوعا ، وبالتالي يكون قد قبل صاغرا ان يستثمره صاحب راس المال .

ويطابق هذا النظام قوى انتاجية جديدة اكثر فعالية من القوى السابقة لهـــا وهي الآلة . وتثير الماركسية اعتراضات رئيسية على النظام الراسمالي فتقول انـــه يتضمن التناقض من داخله . وينجلي هذا التناقض امامنا حين نعلم ان الانتاج بكميات كبيرة غير محـــدودة تخفض الاسعار وتزيد المنافسة حدة حتى تصل الى درجـــة يحطم فيها اصحاب المعامل الصغيرة ، ويتحول هؤلاء الى عمال بروليتاريا وتضعف قواهم الشرائية ، وبالتالي يفقد المنتجون الكبار مستهلكيهم . ثانيا انها حين تجمع الوف العمال معا في معامل واسعة تعطي الراسمالية عمليـــة الانتاج طابعا اشتراكيا ، وهكذا نرى انها تحمل بـــذور انحلالها في ذاتها .

النظام الاشتراكي

ان اساس علاقة الانتاج في النظام الاشتراكي هو الملكية المشتركة لجميع وسائل الانتاج ، وبذلك تكـــون الاشتراكية قد قضت على نظام المستثمِر والمستثمَر . ان الانتقال من دور الى آخر من هذه الادوار المار ذكرها قد حصل في نظر الماركسية بوثبات ثورية ، لا بانتقـــال هادىء تطوري . كذلك نجد ان كل دور من هذه الادوار او نظام من هذه الانظمة يشتمل في ذاته على نقيضه اي بذور الدور المقبل الذي يحتل مكانه في المستقبل . وهكذا دواليك حتى الدور الاخير ، وهو الشيوعية حيث يزول التناقض والتنازع ويصـــل المجتمع الى ذروته ونهـــاية مطافه .

هذه بايجاز وجهة النظر المادية الديلكتيكية فـــي التاريخ البشري وتطـــوره ، وهي كما ظهر تشكل نظاما فكريـــا وفلســـفيا تـــاما بمعنى السيستم Systen في الفلسفة العقلانية في القرن السابع عشر . وسنحاول هنا في نقد هذه النظرية تحليل المبادىء الاساسية تاركين الفروع والتفاصيل .

نجد ، اولا ، ان اعتبار مبادىء ثلاثة عامة مطلقـــة اساس تفسير الكون مطلب متفيزيكي متطرف . اولا لانه يحاول تفسير الظاهر بغير الظاهر ، وثانيا لانـــه يفترض وحدة وجود مطلقة . ان وحدة الوجود افتراض عقلي لا مادي ، لان المادة لا تضيف على ذاتها من ذاتها شيئا . ومن الغريب ان الماركسية تهاجم بلا هوادة كل ما يسمى « متفيزيك » . ولكن الحقيقة ان الماركسية لا تهاجم سوى مفهوم واحد من المتفيزيك ، وهو المفهوم السطحي للفظة ، وهذا المفهوم هو البحث في الله . ان السؤال عن حقيقة واحدة تكمن وراء جميع المظاهر الطبيعية المتعددة مطلب يحتمل الرد بالايجاب والنفي بدرجة واحدة ، وذلك لانـــه ليس لدينا ادلة وقرائن ثابتة تمكننا من التوصل الى نتيجة حاسمة بخصوصه . ولهذا السبب نجد ان هذا السؤال لا يشكل مطلبا فلسفيا . ان هذه النظرة الماركسية تشكو ايضا من اختصار الحقيقة واجتزائها وتتطلب من جـــراء ذلك ان تعكس الامور وان تحور لتلائم المتفيزيكية العامة .

واذا انتقلنا الى المبادىء الثلاثة ، كل بمفرده ، يمكننا ان نرى مدى صحتها وفعلها . اولا التحول من الكم الى النوع : ان هذا المبدأ يحتاج قبل كل شيء الى توضيح ، فان الغموض يكتنفه من كل ناحية . وان تحديد المقصود من كلمة مادة يجب ان يزيل الالتباس الواقـــع ، غير ان تحديد المادة في نظر الماركسيين يزيد الغموض غموضـــا والتباسا . ان التحديد للفظة مادة ينتهي الى القول بان المادة شيء خارج الذات المدركة . وتتفق هنا الماركسيـــة مع الفلسفة الواقعية Realism . فنحن نتساءل اولا عما اذا كانت المادة غير العقل ولا علاقة لها به ، اي انها منفصلة عنه ، فكيف تدخل الموجودات المادية في اعتبار العقل ، وكيف تجوز اذ ذاك المعرفة الانسانية ؟ ثانيـــا السؤال عن الحقيقة الاصلية للوجود ، بعبارة اخرى ، اذا كان الوجود ماديا خارجيا ومستقلا عن العقل الانساني تمام الاستقلال ، ام عقليا ومنعكسا انعكاسا خـــارجيا ؟ هو سؤال لا سبيل الى الجواب عليه وتستوي عنـــده امكـــانية النفي والايجاب ، ولذلك يعتبر متفيزيكيا غيبيـــا وليس من الممكن ان يبنى على اساسه فلسفة واقعيـــة عملية شاملة وسليمة . ومن جهة اخرى لو سلمنا مـــع الماركسية بأن المادة اصل الاشياء وان العقل او الوعـــي ليس سوى مظهر من مظاهر اجتماع المادة فهل للماركسيين هنا ان يشرحوا لنا كيف ينشأ الوعي عن اللاوعي ؟

اما من حيث المبدأ الثاني القائل ان كل شيء فـــي الوجود يشتمل في داخله على نقيضه وان الصراع يظل مستمرا بين النقيضين حتى يتغلب النقيض على النقيض فينطبق عليه الرد الاول نفسه ، اذ ان هذا المطلب متفيزيكي لا مجال لتقريره ، وبالاضافة الى ذلك نجد انه يخـــالف الواقع ويخفف اهمية العوامل الخارجية التي تطرأ على الكائنات . وهذا القول يعني بعبارة اخرى ان كل شيء في النهاية يحطم ذاته وليست هذه بنتيجة سعيدة .

ان هذا الكلام في اصول الفلسفة الماركسية ينطبق على فروعها ، ومنها الاجتماعية ، لانهم يجدون جميـــع هذه المبادىء متمثلة في المظاهر الحياتية . وان صح الكلام السابق في نقد الاصول يصح كذلك في الفروع . فمثلا نجد انهم يعتبرون الافكار الاجتماعية والروحية نتيجـــة ضرورية للاوضاع المادية التي تسود المجتمع ، وهـــذا القول كما بينا لا مبرر منطقي او واقعي له . وهو مـــع هذا اختصار للتاريخ البشري ويشكل اجتزاء يشوه وجه الحقيقة . وليس هناك من ينكر اهمية الاوضاع الماديـــة للمجتمع ، ولكننا اذا اعتبرنا علاقة هذه الاوضاع علاقـــة السبب للمسبب اي علاقة ضرورية حتمية وعممنا هذا القول الى حد الاطلاق كما يفعل الماركسيون نقع فـــي شطط ليس بعده من شطط . ان وسائل الانتاج تـــؤثر

تأثيرا كبيرا في نظام المجتمع ولكنها أقصر من ان تستبد به وان تكون المفتاح السحري لتفسير جميع المظاهر الاجتماعية. لقد أصبحت كلمة وسائل الانتاج عند الماركسيين أشبه شيء بكلمة « ابرا كوبرا » في خرافات علي بابا .

تقول الماركسية ان الملكية الاجتماعية في العصور الحجرية نتجت من نوع الادوات المستعملة في تلك الحقبة. وتقول ايضا ان الرق ظهر مع استحداث الادوات المعدنية بصورة حتمية . والسؤال الآن : ما هي العلاقة الضرورية بين الادوات الحجرية والملكية الجماعية وبين الرق والادوات المعدنية ؟ ألم يكن من المعقول ان يكون النظام الاجتماعي عند استحداث الادوات المعدنية غير نظام الرق ؟ ان نظرة كهذه تعني اننا لو علمنا ما هي وسائل الانتاج التي ستستعمل بعد عشر سنين نستطيع ان نقول ما هو النظام الاجتماعي الذي سيسود آنذاك . ولو ان غاية هذا البحث تاريخية التي لا تتفق مع هذه النظرية . من الاحداث التاريخية التي لا تتفق مع هذه النظرية . فهناك الحقبة المعدنية التي تقسم الى قسمين رئيسيين : ظهور البرونز ٣٠٠٠ ق.م. وظهور الحديد ١٢٠٠ ق.م. ومع ظهور كل واحد من هذه المعادن حصلت هزات اجتماعية مشهودة . ولكن النظرية الماركسية التي تجتزىء من الحقيقة وتختصرها نظرت الى الحقبة المعدنية نظرة واحدة دون تمييز وذلك لتجعل مادة التاريخ توافق مبادىء النظرية . ومع هذا ان وسم المجتمع في الحقبة المعدنية بالعبودية انما هو ترهات لا غير . وهناك المجتمع الاقطاعي في اوروبا ايام القرون الوسطى ، وفيه يقول الماركسيون انه ظهر كنتيجة لتحسن الادوات الحديدية ، وهذا كلام هراء ايضا . فالتاريخ يظهر جليا ان هذه الحالة انما كانت تأخرا حصل عن انهيار السلطة الرومانية والسلاح الروماني ولا يمكن تزوير الحقائق التاريخية بهذه السهولة . وبالاضافة الى هذا تقول الماركسية بان نظام الاقطاعية هذا هو النقيض الذي تلا نظام الرق . فهل يمكن من درسنا الواقعي لتاريخ هذين العهدين ان نسمي الواحد نقيضا للاخر ؟ لا شك ان نظام الاقطاعية يختلف عن نظام الرق ولكن هل يمكن ان يعتبر لاجل هذا الاختلاف نقيض نظام الرق ؟

وبالرغم من كل هذه المتناقضات يجب ان لا نتجاهل ان الماركسية قدمت في مضمار الفكر التاريخي اشياء كثيرة وخاصة اهمية التشديد على العوامل المادية في حياة المجتمع. غير ان رسالتها من هذا القبيل قد استنفدت واصبح الان على الغير ان يأخذوا عنها . والذي أعنيه هنا ان النظر الى القوى التاريخية يقتضي التشديد على المعلومات الواقعية ذات الطبيعة العملية على اختلاف مظاهرها وبالتالي الاخذ بسبيل العلم على اختلاف مواضيعه . وهنا يجدر بنا ان نشير الى ان وسائل الانتاج تشكل جزءا من هذه المعلومات الواقعية . والعنصر الثاني في فهم التاريخ هو فهم الفكرة التي تلائم اوضاع المجتمع الواقعية ، اي ذلك الاطار الفكري الذي يعطي القوى الواقعية الخرساء هدفها ويوجهها ويعطيها معنى . والفكرة المنتصرة تكون تلك التي ترى القوى الواقعية على حقيقتها وتكون ملائمة لها . وبناء عليه نرى ان تقدم العالم العربي ولحاقه بعجلة التاريخ وازدهار شعوبه يتوقف في القسم الاعظم على الاخذ بزمام العلم والفكر النير . وما لم تتعمق جذور العلم في هذا الوطن وتتسع دائرة معلومات الشعب الواقعية فلن تغنينا السياسة والثورات السياسية شيئا . ان حياة المجتمع الحاضر قائمة على العلم ، وما السياسة سوى تلك المؤسسة القائمة على توزيع النتائج العلمية وتنظيمها واستخدامها في حياة الشعب .

ايليا حريق

يصدر هذا الشهر

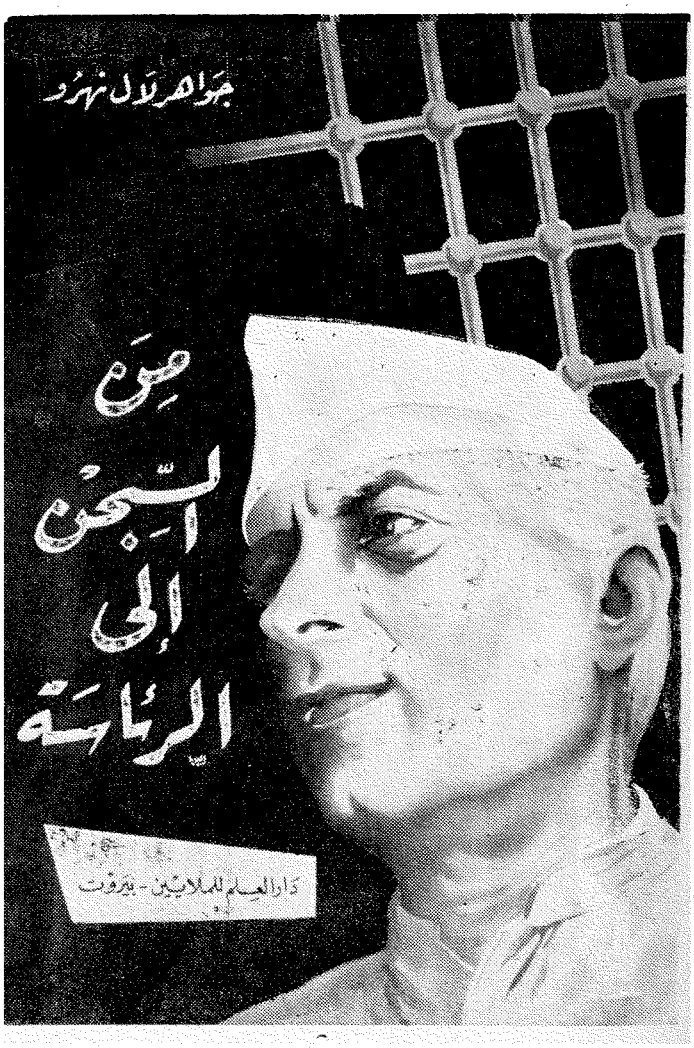

الكتاب الذي يعلن عن نفسه